ميخائيل نعيمه والكون .. والإسلام !

بقلم محبوب بن ميلود

من الاحداث الادبية الهامة ظهور كتاب ميخائيل نعيمه « أبعد من موسكو ومن واشنطن » . فهو يعرب عن « اتجاه عقلي » جديد ربما كانت اصدق عبارة تخصص مكانته في الانتاج الفكري الحديث قولك انه يكشف عما يضطرم به الضمير الانساني المعاصر من الاشواق وعما يهمهم في اعماقه من الرجاء...

والغريب ان ظهور هذا الكتاب منذ عامين ـ فقد اخرجته دار بيروت ودار صادر للطباعة والنشر منذ سنة ١٩٥٧ ـ لم يحظ بما هو حري ان يحظى به من العناية والنظر . فما كان محل نقد ولا محل تحليل ، ولا شغل بالا ، ولا حرك سواكن العقول العربية فأقبلت على التأمل فيما جاء فيه من الاراء والانظار ولا فيما دلت عليه هذه الاراء وهذه الانظار من نزعة عقلية جديدة .

وليس من شك في ان العقول العربية كانت تعير هذا الكتاب اشد العناية ، لو كانت من فصيلة العقول الحية ، الحريصة على كل امر طريف ، الشغوفة بكل ما فيه العون على « عقل » شؤون هذا الزمان ، وعلى غلاب مشاكله وصعابه غلاب الصدق .. بل لعلها كانت تجد فيه وصفا هو ادق الاوصاف لما تتجرعه الانسانية المعاصرة من القصص ، وتبيانا هو ابين التبيان لجنس ما يشكوه الضمير الانساني المعاصر من الهول ، والذعر ، والقلق ، واشارة هي ابلغ الاشارات لما يمكن ان يجدد للانسانية المعذبة ـ عهد السلام ـ وعهد الامن ـ وعهد الطمأنينة ، وعهد الاخلاص للقيم الخالدة ..!

وان كان للكتاب هذا الشأن ـ وان له لهذا الشأن ! ـ أفليس من المتع حقا ان نقف عنده وقفة وجيزة خاطفة ـ فنقمة هذا الزمان على ابنائه تريد الا يقفوا امام جوهري الامور الا الوقفات الوجيزة الخاطفة لما يحدوهم من التسرع ، وازدحام الشواغل ـ ! لا لاعطائه حقه من التحليل ، ولا لفتح الجدال مع صاحبه ولا لمجازاة مؤلفه بما هو اهل له من الوان الجزاء والشكور ـ فمؤلفه حكيم ليس ينتظر منا جزاء ولا شكورا، فحسبه من تأليفه ان تنفس فكره الاصيل ، وحسبه ان طفحت نفسه الكبيرة بما يغمرها من امواج الاسى ، وحسبه ان فاض قلبه المنغم بفيض من الاشواق المنغمة ..!

فليكن اذن حسبنا ان نستعرض بعض ما في الكتاب من « الاغذية الروحية » حتى يلتفت اليها الجياع الى جوهري الطعوم فيصيبوا منها على قدر جوعهم ، او على قدر اقتدارهم على الهضم على الاقل ..!

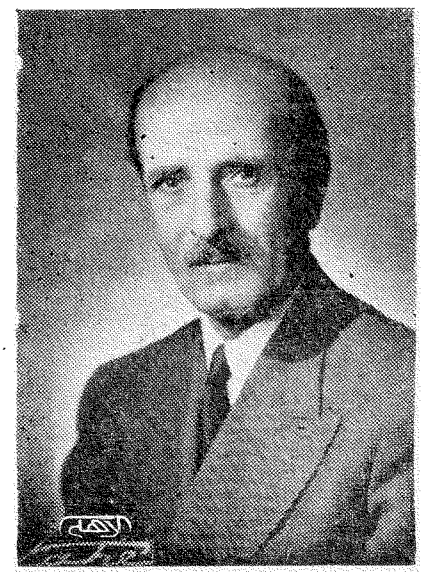

*

الف ميخائيل نعيمه ـ هذا الكتاب « أبعد من موسكو ومن واشنطن » اثر زيارة للاتحاد السوفياتي قام بها في صيف سنة ١٩٥٦ ـ تلبية لدعوة وجهها اليه «اتحادالكتاب» في موسكو.وميخائيل نعيمه ، ينبئنا منذ بداية المقدمة التي قدم بها للكتاب عن حقيقة قصده من تأليفه الكتاب فيقـــــــول :

« اما قصدي من الكتاب فليس ان اضيف مجلدا جديدا الى المكتبة الضخمة التي الفها الكتاب حتى اليوم في شتى البلدان ـ وبشتى الالسن ، ولشتى الغايات حول البلاد التي انتهجت لحياتها نهجا جديدا وغريبا في الارض . فلن يجد القاريء في كتابي وصفا لذلك النهج ، وتفصيلا لحسناته وسيئاته لا ولا احصاءات لما انجز من اعمال في مختلف المرافق ما بين اقتصادية ـ واجتماعية ، وزراعية وصناعية ، وثقافية ، وغيرها » ... الا ان ميخائيل نعيمه لا يكتفي بهذه الاشارة السلبية . فبعد ان دلنا على ما لا يريد فها هو ذا يعمد الى ما يريد فيؤكد :

« .. اني رجل يؤمن اعمق الايمان بالانسان وعبقريته التي بغير حدود، ويؤمن بالنظام السرمدي الذي من وراء الانسان وعبقريته ، ومن وراء كل منظور وغير منظور في الكون . ويؤلمه اشد الالم ان يرى ذلك الانسان يغرق اليوم حتى اذنيه في رغوة من المماحكات حول ايهما الافضل .. الرأسمالية ام الشيوعية ؟ ثم ان تثير هذه المماحكات اخس ما فيه من شهوات . فينسى انه انسان وانه معد لنتاج الالوهة ، ويمضي وقد اعمته شهواته في حشد قواه الهائلة لا للقضاء على الجهل الذي هو عدوه الاوحد والالد ـ بل للقضاء على نفسه ، وعلى عبقريته ، وعلى المستقبل الباهر الذي لا بد ان يتمخض عنه الزمان اذا لم يفقد الانسان رشده .. » (ص ٦)

.. ان من اطلع على الكتاب فأمعن النظر في صفحاته وفي فصوله ثم عاد الى هذهالسطور ادرك جيدا انها تعرب صريح الاعراب ـ عن كل المقاصد التي اراد المؤلف ان تكون مقاصده في تأليفه الكتاب مثلما تعرب اعرابا لا لبس فيه ـ عن موقف المؤلف من القضية التي هي ـ من دون شك ـ القضية في ميدان السياسة الدولية .. فالمؤلف لا ينفك يعير كامل اهتمامه مشكلة انقسام العالم الحديث الى معسكرين هائلين معسكر موسكو ومعسكر واشنطن فيناوىء كلاهما العداء للاخر ، ويحاول بكل ما اوتي من وسائل القوة ،

ومن وسائل الدعاية القضاء عليه والتبديع به ، والتشويه لامره في عيون الناس بالمعمورة كافة !.. وهو لا ينفك ينظر في امر هذا الصراع العنيف الذي يجري بينهما ، ويتخذ من المظاهر اشكالا وصنوفا . وهو لا ينفك يتتبع ما لهذا الصراع من الاثار الهدامة ، وما يمكن ان يكون له من هول العاقبة، لو ارادت الظروف فبلغ التوتر اقصاه فانقلبحربا لا تبقيولا تذر! ..ومما يزيد المؤلف هما ، فغما ، فمرارة ، فحسرة على كل ذلك ان كان للمعسكرين من القوة ، ومن العدة ، ومن الثروة الطبيعية ، ومن الامكانيات التي لا تقدر في الميادين العلمية ، والفنية ، والصناعية ما يمكنها من القضاء على كل ادواء الانسانية لو تعلقت همتها بذلك فتحالفا فاشهراها حربا عوانا على الجهل ، وعلى الفقر وعلى الجوع، وعلى العري ، وعلى المرض ، بكامل انحاء المعمورة ! .. قال ميخائيل نعيمه :

« ان ما ينفقه المعسكران من المال في سبيل التسلح ، ومن الحبر والورق والقلام في سبيل تشنيع واحدهما الاخر وتشهيره وتوسيع الشقة الفاصلة بينهما وزرعها باشواك الخوف ، وحراب الكراهية وفخاخ النقمة اما ترتعد لفداحتها اكثر القلوب شجاعة ، وتصطك لهوله اشد الركاب صلابة ، وترتد عن احصائه اوسع الادمغة معرفة بالارقام ولو انه او « بعضه » انفق في سبيل اطعام الجياع ، وكسو العراة ، وتعليم الجهلة ، وتطبيب المرضى ، وتقريب القلوب بعضها من بعض ، لما بقي في الناس جائع ، وعريان وجاهل ، ولا قلوب تتآكلها الشحناء والبغضاء وتعبث بها نزوات يخجل حتى الحيوان من ان تنسب اليه ! » (ص ٩)

.. وليس من شك في ان المعسكرين لو فعلا ذلك لانتهيا الى ظفر يكون هو « الظفر الاكبر » بالاضافة للانسانية قاطبة . ناهيك انه لن يسفر عن تمزيقها اشلاء : هازمة ومهزومة ، وقاهرة ومقهورة ، وظالمة ومظلومة .. وانما تكون الهزيمة ويكون القهر لكتائب الاهواء ، والاحقاد والبغضاء ... فيتسنى للنفس الانسانية ان ترد لنفسها ويتسنى لها ان تقبل على الكفاح الحقيقي الذي أشار اليه النبي العربي حينما اكد « لو تعلقت همة ابن ادم بما وراء العرش لناله ! » وتلك هي القمة التي اعتلاها المفكر اللبناني ميخائيل نعيمة ليشرف على مشكلة انقسام العالم الحديث الى معسكرين ، وباشعة اضوائها الساطعة حاك النسيج الذي قدمه لنا في كتابه الممتع حقا : « ابعد من موسكو ومن واشنطن » !

✶

ان اخص خصائص الاتجاه العقلي الذي كانت ثمرته كتاب ميخائيل نعيمه : « ابعد من موسكو ومن واشنطن » في شأن انقسام العالم الحديث الى معسكرين هائلين انما هو روح التجرد عن الهوى والخروج « بما يدعونه « نضالا » بين الرأسمالية والشيوعية من اطاره الضيق الى اطاره الاوسع حيث تبدو الرأسمالية والشيوعية موجتين لا اكثر من امواج الخضم البشري » (ص٦) فالمفكر اللبناني يأبى ان يتعصب لهذا المعسكر على ذاك او لذاك على هذا . او قل ـ وهي عبارة ادق واصح ـ انه يعجز عن مثل هذا التعصب ! ـ وان انت اردت ان تستكنه اسرار هذا العجز الذي هو عجزه وجدتها تنحصر في عوامل واعتبارات متباينة ، عديدة ولكنها مؤلفة ـ حين التاليف ـ في نفسه ـ وانه ليمكن لك ان ترجع تلك العوامل الى اصول ثلاثة :

أ) اما الاصل الاول : فكون المفكر اللبناني تضطرم نفسه اضطراما بأعز المبادىء والتعاليم المسيحية ، فهو من تلك النفوس النادرة جدا في العصر الحاضر التي لاتدين بالمبادىء والتعاليم المسيحية دين التقليد ، والوراثة الجامدة ، والذهول عن زبدتها ونورها ، وانما تدين بها لانها استطاعت ان تفجر لها « السبل الحية » فاضحت جزءا لا يتجزأ من لحم احساسها ، ولحم تفكيرها ، ولحم اندفاعاتها ، واضحت انفاسها واشاراتها ومواقفها من كل الامور جليلها وحقيرها ـ تشتق عبيرها ونورها من عبير تلك المبادىء والتعاليم ومن نورها ... وهو امر يمكن لك ان تعتبره « انقلابا » بعيد الغور في الحساسية المسيحية المعاصرة او « بعثا » حيا للمبادىء والتعاليم المسيحية في هذا العصر .. فشخص كميخائيل نعيمة يؤمن اعمق الايمان « بان الانسان اخ للانسان اينما كان ، ومن ايما لون او عقيدة او لسان كان ، وبان الاخوة تقضي بالتعاون لا بالتنادد ، وبالتشاور لا بالتناحر وبالتضامن لا بالتجافي ... » فكيف يعقل ان يشتق موقفه من مشكلة انقسام العالم الحديث الى معسكرين من معدن التعصب لهذا المعسكر او لذاك ؟

أفليس اقرب الى المنطق والى المقول ، والى كنه الحكمة ان يعمد الى ذات النزاع ليكشف عن اسباب نشوبه ، والى ذات المشكلة ليبحث لها عن حل من شأنه ان يقرب الشقة بين المعسكرين او من شأنه ان يصلح ذات البين بينهما ؟

.. وان انت نظرت للامر هذه النظرة افليس يجب على المؤلف ان يتلفع برداء الحكم النزيه نابذا وراءه ظهريا كل تعصب ، متخذا شعارا له ومبدأ العطف على الخصمين بعين الانصاف ، وعين النزاهة ، وبعين التجرد من كل هوى ؟ .. وهذا هو السر الذي حمل المؤلف على ان يختار لكتابه العنوان الذي اختاره له « ابعد من موسكو ومن واشنطن » !

ب) واما الاصل الثاني : الذي يعصم المفكر اللبناني من التعصب لهذا

مجموعة تــراث العرب

تصدر باشراف لجنة من المحققين

✶✻✶

		ق.ل
لسان العرب	٦٥ جزءا	٢٦٠٠٠
معجم البلدان	٢٠ »	٨٠٠٠
الطبقات الكبرى لابن سعد	٣٢ »	٨٠٠٠
رسائل اخوان الصفاء	١٢ »	٣٦٠٠
البخلاء للجاحظ		٦٠٠
مقامات الحريري		٧٥٠
مصارع العشاق جزآن لابن السراج		١٢٠٠
تاريخ الائمة الاثنا عشر لابن طولون الدمشقي		٢٥٠
مجمع البحرين لليازجي		٦٠٠
مشارق انوار القلوب للدباغ		٥٠٠
تاريخ ولاة مصر للكندي		٧٥٠
تاريخ اليعقوبي جزآن		٢٠٠٠
تاريخ الدول الاسلامية لابن طباطبا		٦٠٠

الناشر : دار صادر ـ بيروت

المعسكر او لذاك فعين المنصب الذي هو منصبه . واعظم به من منصب ! هو منصب الحكيم الذي تأبى عليه حكمته الا ان يحاول دائما وابدا النفاذ الى جوهري الامور من وراء كل رغوة اوكل زبد ، هو الشفوق بقل امر له علاقة بالانسان ، وبجهد الانسان ، وبكفاح الانسان ، وبانكسار الانسان، وبفوز الانسان .. في كل صفحة من صفحات التاريخ ، وفي كل مرحلة من مراحل الدهر ، وفي كل بقعة من بقاع الارض ، وفي كل موج من امواج الحضارات ، وخلال كل اية من اياتها ليس يرى الا « تقاسيم » متنوعة من عزف عبقرية الانسان !.

.. وسواء اكان الانسان على هذا المذهب او على ذاك ، وسواء أكان من هذه الملة او من تلك ، فالحقائق الانسانية عنده هي هي : « فالابوة تبقى الابوة ، والامومة تبقى الامومة : لا فرق بين شيوعي ورأسمالي ، ومتمدن وهمجي » (ص ١٨٤) وكذلك الالم يبقى دائما الالم ، والبسمة تبقى دائما البسمة ، والطينة البشرية تبقى دائما الطينة البشرية ـ تثير فيك دائما ما تثير من الوان التجاوب والعطف والاشفاق ... ولا الظلم ـ كل الظلم ـ دائما نصيب هذا ولا الحق كل الحق ـ دائما وقف على ذاك !

فكيف التعصب لهذا او لذاك ؟

ج) واما الاصل الثالث . الذي يحجر على ميخائيل نعيه التعصب لهذا المعسكر او لذاك فهو ما يمكن ان نسميه بلغة العصر او باصطلاحه: « العنصر الوجودي » ..

.. وان نحن ذكرناه في الرتبة الثالثة ، فليس معناه انه اقل العناصر شانا . او انه اضألها خطرا ... بل قد تكون اقرب الى الصواب اذا ما قلت انه اقوى تلك العناصر تأثيرا في النفس ، واشدها مفعولا في تحريك اعماقها وتفجير عطفها ، هو على كل حال ابلغها اشارة الى ما جبلت عليه نفس ميخائيل نعيمه من معدن الاخلاص والوفاء والاعتراف بالجميل !

... لقد شاءت الاقدار وشاءت ظروف حياته ان يعيش دهرا بروسيا قبل ثورتها فأكل فيها « الخبز والملح » على حد تعبير البدو في بلاغتهم الرمزية القوية مثلما شاءت الاقدار وشاءت ظروف حياته ان يعيش دهرا بالولايات المتحدة وان يأكل فيها « الخبز والملح » .. وانه ليكفيك ان تقرأ الفصول التي تحدث فيها عن حياته بروسيا ، وعن حياته بالولايات المتحدة لتدرك ان اشفغة قلبه ارتبطت اوثق الارتباط بالربوع الروسية وبالربوع الاميركية وبما جرى له فيها من الاحداث وبما اهتزت به نفسه فيها من متنوع الاهتزازات ..

.. ولا تظنن اني اعني جنس ارتباطه بروسيا ، او ان جنس ارتباطه بالولايات المتحدة من جنس الارتباط العاطفي .. فلو كان الامر كذلك لما سميت هذا العنصر « عنصرا وجوديا » .. وانما اعني شيئا اخر اعمق غورا ، وابعد مدى ، واجل شانا . وهو غير العاطفة وغير ذكريات العاطفة ، وغير تموجاتها السطحية .. !

ان ميخائيل نعيمة لم ينته الى ما انتهى اليه من التدرج في معارج الشعور بالذات ، ومعرفة الذات واسرار الذات الا اثر مغامرات ، وتجارب ومراحل طويلة ، وغصص كانت بمثابة ارهاص الذات واختبارها ، وابتلاء معدنها . ولقد كانت روسيا اولا مثلما كانت الولايات المتحدة ثانيا « المسرح » الذي جرت على خشبته مشاهد رواية « تيهه المعنوي » او « تكديته الروحية » وانه ليمكن لك ان تقول ان ما اكتشفه ميخائيل نعيمه من الحقائق اثناء ذلك التيه او اثناء تلك التكدية كان بمثابة الآجر التي بنى بها ذاته المعنوية او الروحية !

... وليس من شك في ان ما عرفه ميخائيل نعيمه من الاحداث النفسية والوجودية بروسيا او بالولايات المتحدة قد امتدت بينه وبين ربوع هذه او ربوع تلك اوثق الاسباب فاضحت تلك الربوع رمز تلك الاحداث النفسيه او الوجودية بل اضحت جزءا من لحم احساسه ، ومن لحم تفكيره ، ومن لحم اشواقه ، ولو ان ميخائيل نعيمه زاغ عما كان له من الحشمة اثناء تحريره بعض فصول الكتاب اذن لامكن له ـ من دون شك ـ ان يشاهد ـ خلال زياراته بعض الجهات ، بعض رسوم نفسه ، وبعض كلوم نفسه ، وبعض انتصارات نفسه ، وبعض ملامح نفسه ، ولامكن له ، من دون شك كذلك ـ ان يقف امام هذه الجهة وقوف العاشق امام قبر الحبيب وان يقول لنا ـ « هنا وأدت بعض عرائس المعاني » وان يقف امام تلك الجهة ـ وفي القلب الخفقة ! ـ فيؤكد لنا : « هنا استيقظت نفسي لسر من أسرار بعض القيم » ولكانت رحلة الجغرافية رحلة روحية من أمتع طراز !... وهنالك أمر اخر هو ايضا من الامور الحاسمة وان كان معظم الناس ذاهلين عنه وهو ما يمكن ان نسميه اختبار الحقيقة الانسانية في مرايا النفوس ـ لا عن طريق الاطلاع على الاثار الادبية او التاريخية ، ولا عن طريق مايؤلف من شتى التآليف في شؤون الحضارات والعقليات البشرية ...! فكل انسان يختبر جوهري الحقائق الانسانية خلال تجاربه الشخصية ، وأثناء اتصالاته المتنوعة باشخاص معينين هم « نصيبه الحي » ـ لا المجرد من الحقيقة الانسانية ... فانت تختبر الحب وحقيقة عبيره في عيون فلانة او فلانة وتختبر الصداقة وتموجاتها في عيون فلان او فلان . وتختبر البغضاء ومر طعمها في عيون فلان او فلان . ولا شيء يعادل هذا الاختبار الحي المباشر للحقائق الانسانية لما يمتاز به من الاقتدار على الكشف عن ابعادها الرفافة ـ وانك لتنفذ ـ بفضله ـ في اعماق النفوس ـ نفاذ الميل ـ فتعرف عبيرها الحقيقي ، وعواطفها الحقيقية ، وفضائلها الحقيقية !... وليس من شك في ان ميخائيل نعيمة أمكن له بروسيا ان يختبر حقيقة الروح الروسية وفضائلها مثلما امكن له ان يختبر بالولايات المتحدة حقيقة الروح الاميركية وفضائلها خلال من عرفهم من الروس والاميركان فشاهد في مرايا نفوسهم كنوزهم الانسانية الحية ، الراقية الزاخرة .

ـ أمن العجيب بعد هذا ان يكون انقسام العالم الحديث الى معسكرين هائلين هو عين انقسام ميخائيل نعيمة الى شطرين ؟ وهل يمكن له ان ينكر بعض نفسه لبعض نفسه ؟ لذلك امكن له ان يقول لنا في احتشام ـ وراء الزوبعة ! ـ « ومما يزيد في ألمي ان البلدين اللذين يثيران الجانب الاعظم من تلك الرغوة « رغوة الدعاية والحرب الباردة التي تغمر العالم » هما البلدان اللذان تربطني بهما اوثق الصلات » (ص٦) فكانت مأساة العالم الحديث هي مأساة ضميره الخاص !

وكفاه هذا فخرا .

وكفى صوته وزنا .

وكفى شهادته صدقا ، واقتدارا على تحريك سواكن النفوس !

***

وبعد فما الذين دعا اليه ميخائيل نعيمه من وراء هذا الكتاب ؟ وما ترى الحل الذي يراه الحل لهذا النزاع الذي يقسم العالم الحديث شطرين ويجعل ابناء هذا الزمان اهون مايكون عليهم التعصب ،والتلفع برداء الحقد ، والبغضاء وظلمة الاهواء ؟ فهل تراه سيدعو ـ مثلما يدعو

كثير من متزعمي السياسة ـ الى تكوين « قوة ثالثة » أوروبا الموحدة او ماشئت من كتل الدول الصغرى ـ حتى تكون « الحكم » الذي يرجح كفة هذا المعسكر او كفة ذاك لمجرد ميلها او انحيازها لهذا المعسكر او ذاك او حتى يكون مجرد وجودها عنصرا من شأنه ان يخفف من غلواء هذا المعسكر او من غلواء ذاك « فيشكل نقطة التوازن بين الاثنين وبذلك تغدو دعامة للسلم ...؟ (ص٤٥) ليس من شك في ان ميخائيل نعيمه لا يمكن ان يكون من انصار هذه « القوة الثالثة » ولا من الداعين لتكوينها ... فهي وليدة « خيال » لم يخرج من ميدان العنف ، ولا من ميدان التلاعب بمختلف القوى التي تتصارع ... هي من جنس الشر الذي يشكوه العالم الحديث فيتململ من جرائه ويتقلب مثلما تتململ المرأة المريضة على فراشها وتتقلب ! لذلك كان لايمكن لمثل هذه القوة الا ان « تطعم » الاهواء السياسية ، والمناورات السياسية بما هي حرية ان تثيره من تزلف هذا العسكر او ذاك للفوز بتأييدها له وانحيازها لشقه وبما هي حرية ان تضرمه من الاطماع الجديدة ، والدسائس الجديدة والمناورات الجديدة ، فلا يزداد التوتر السياسي في الميدان الدولي الا شدة ، ولا تزداد الاجواء العالمية « الا تسمما » ! ولذلك كان لايمكن ان تنهض هذه القوة الثالثةالتي يريدها بعض متزعمي السياسة الا الى عكس ما كانت تطلبه من الاثار والنتائج !.. فايجاد القوة الثالثة ، ليس اذن الخطوة التي تقرب « الحل الرشيد » الذي يريده « الضمير الحي » لازمة العالم الحديث او لمأساة العالم الحديث . وانما كان الامر كذلك لان هذا الحل ـ ان صح ان يسمى حلا ـ ليس الحل الجذري للقضية . فما عمد اصحابه للغوص على جنس الداء الذي يشكوه العالم ، ولا حاولوا الاهتداء الى جنس الدواء الذي يتطلبه ذلك الداء ! فما عسى ان يكون الحل الذي يريده ميخائيل نعيمه ويدعو اليه ؟

٣ ـ ميخائيل نعيمه يدعو العالم الى الاسلام !

ان اعمق احساس يستحوذ على مشاعر ميخائيل نعيمه حينما يعطف على التوتر السياسي الذي يسود الميدان الدولي فتدوي شعاب نفسه بتموجات اصدائه انما هو احساسه الحاد بان ازمة العالم الحديث في كسوف المعاني الخلقية ، والقيم الروحية بأفق البشرية فأضحى السواد الاعظم من اهل هذا الزمان لايعرفون للثقة ، وللصدق ، وللاخاء ، وللعدل وللحرمة البشرية رسما ولا مدلولا من جراء ماتعاقب على المعمورة ـ خاصة في العقود الاخيرة ـ من اعاصير فلسفات النفي والتعطيل ومن امواج العسف ، والاستبداد ، والظلم الصناعي ، وحب الهيمنة وزهو القوة ، وبطر العنف فاضحت النفوس لا تستشعر من عزة الحق ،ولا من حلاوة الخير ، ولا من سحر الجمال ، ولا من حرمة الاقداس مايرفع مستوى البشر الى المستوى الانساني الحقيقي ...

ولقد اضحى المتحدث عن المعاني الخلقية ، وعن القيم الروحية يتمتع بحرمة المشعبذ في البطاح ، او بسمعة رجل من رجال صنعة القرون الوسطى ، كلامه لايثير في الاذهان المعاصرة الا اخفت الاصداء وأهزل الصور والاشباح ، ودعوته في سبيل التذكير بجوهري الشؤون مدعاة للسخرية والازدراء لا للتعذير والاحترام ... ان ازمة العالم الحديث ازمة خلقية روحية معدنا وجوهرا .

فوسائل العلاج لايمكن اذن ان تكون الا من المعدن الخلقي والروحي ..

.. ولقد ادرك ميخائيل نعيمه كل هذا كنه الادراك . لذلك كان العلاج الذي يصفه لازمة العالم علاجا خلقيا ، روحيا معدنا وجوهرا .

ومما يجعل مهمة ميخائيل نعيمه اذ يحاول تجديد الشعور بالقيم الروحية في هذا الزمان مهمة دقيقة جدا ، صعبة جدا ، ان كانت العقول المعاصرة منصرفة عنها بأعند الانصراف وان كانت الالفاظ عندها مجرد الفاظ لا فحوى لها ولا مضمون ...

فأن انت حدثتها عن « الحياة الروحية » او عن « الحقائق الروحية » او عن « النظام الروحي » او عن « البطولة الروحية » نظرت اليك نظرة هي الاستخفاف والاعراض وعدم الفهم ، والشك في عقلك وفي منطقك ! فكأنك انما تنطق بالفاظ ليست العقول المعاصرة « تعقل » منها شيئا ولا تتبين لها مدلولا . فالحبل الذي يربط في الاذهان بين الاسماء والمسميات قد انقطع في هذا الميدان !

واضحى لابد لك من السعي في سبيل ربطه من جديد ان كان لك رجاء في الاقناع ، وحرص على تحوير العقول وعى تحرير اتجاهها ، وكنت لا ترغب في ان يذهب حديثك صرخة في واد !..

ورحم الله ابا حامد الغزالي فقد عانى من امر هذا المشكل عينه ماعانى فكان لا ينفك يردد :« ليس المشكل النصيحة ، وانما المشكل قبول النصيحة ! »

والمفكر اللبناني ما انفك خلال العقود الاخيرة يجدد عهد الكفاح في سبيل بناء القيم الخلقية والروحية في هذا العالم المتهافت ..

فهو لا ينفك يسبك معدنها ، ويحدد مفاهيمها ولا ينفك يزيل ما تراكم حولها من الجهالات ولا ينفك يهتك الاستار والحجب التي تحجبها ، ولا ينفك يطارد العوامل التي زيفها خلال القرون الماضية فبارت بضاعتها،

ـ التتمة على الصفحة ٥١ ـ

المجموعة الفلسفيـــة

تعرض الاراء الفلسفية القديمة والحديثة

	ق.ل
الوجودية فلسفة انسانية ترجمة : حنا دميان	١٠٠
الوجودية ليست فلسفة انسانية ترجمة : محمد عيتاني	١٥٠
سارتر والفلسفة ترجمة : حنا دميـان	١٥٠
الفلسفة الوجودية ترجمة : تيسير شيخ الارض	٣٠٠
تأملات ديكارتية » : » » »	٤٠٠
رجل الدولة ترجمة : الدكتور اديب نصور	٢٥٠

الناشر : دار بيروت

ميخائيل نعيمة والكون والاسلام

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٢٧ ـ

ولا ينفك يذكر الانسان بحقيقته وبحرمته وبقدره في الوجود ، عندما يخلص لنفسه فلا يدع لدوران الاهواء والعصبيات وظلمات البغضاء يجنس معدنها ابشع التجنيس او تعكر بلور مائها !..

وهو لا ينفك يردد ان الجهل هو عدو الانسان الاوحد والالد لانه هو مصدر كل الشر وكل الخيانات !

فالانسان لا يعرج الى مستوى الفهم ، فهم الحقائق والامور حتى تنطلق همته الاصلية وتتفتح : فاذا بالحب يسري الى القلب فيغمره بحرارته ونوره ، ويحور اتجاهه ، ويعدل خفقانه، واذا بالايمان بجوهري الامور تمتد عروقه وتنتشر كهرباؤه في جميع اجزاء الكيان فتضرم نار العزم ، والصدق ، والبطولة وتصبح القوة التي تقلقل الجبال ! واذا بالتسامح ينشر ظلاله حيثما كانت اهواء العصبية هي السيدة ، وحيثما كانت هيمنة القوى الظلامية هي الناموس ! واذا بالانسان يصبح اهلا « لتاج الالوهية » على حد تعبير المسيحيين ـ او اهلا ليكون خليفة الله في ارضه على حد تعبير نحن معشر المسلمين ، فتتفجر في القلوب الادمية نجوم الاشواق الحية لكل ما هو حق ، ولكل ما هو خير ، ولكل ما هو حسن ، ولكل ما هو من معدن الاقداس ، فيصبح للحياة الانسانية رفقها ، وسموها ، واقتدارها على الخلق والابداع ، ويصبح للجهد معنى، وللوثبة امتداد ، وللمغامرة اغراء .. وتتعاقب الحضارات البشرية امواجا في محيط الحياة الكبرى : فنونها فنون ، وفلسفاتها انوار ، وعلومها فتوحات واخلاقها البطولة ، واقتصادها العدل ، وسياستها الرشد والنفع والبر وصلواتها الانغام وافقها يتلألأ باضواء نجوم الحق، والخير والجمال ، والتقديس !

وللامر الذي ما انفك ميخائيل نعيمه يثبته ، ويؤكده هو ان هنالك نظاما خلقيا شاملا وله نواميسه مثلما ان هنالك نظاما ونواميس في الميدان المادي .. وليس النظام الكوني سوى مجموعة تلك النواميس التي يهيمن على العالم الروحي وعلى العالم المادي..

ان الفيلسوف الفرنسي هنري برجسون كان في اوائل هذا القرن كثيرا ما يعرب عن اسفه الشديد على كون الغربيين قصروا همهم من عهد اليونان لعهدنا هذا على العطف على امر النظام المادي للكشف عن نواميسه . وكان كثيرا ما يجزم بانهم لو عطفوا اثناء الدهور الماضية على النظام الروحي عطفهم على النظام المادي لخطوا في معرفة نواميس النظام الروحي الخطى الشاسعة .. ولكني اجزم بان الشرقيين على اختلاف مللهم ونحلهم ، ومشاربهم قد خطوا هذه الخطى الشاسعة في الكشف عن نواميس النظام الروحي ، الا ان قطران الدهور قد تراكم على فتوحاتهم في هذا الميدان فطمس معالمها فاستحالت في اذهان المعاصرين معميات والغازا لا طائل وراءها !.. وما ميخائيل نعيمه (١) الا « روح الشرق » تبعث وترد الى نفسها فتستانف سيرها من جديد بعد ان انقطع دهرا .. وانها لتلفت الانظار ـ على لسانه ـ في عنف ـ هو العنف الروحي لا المادي ـ الى ضرورة الاخلاص للحقيقة الانسانية في محرق اشواقها ـ في الميدان الروحي ـ حتى يكون لها التطور الكامل ـ والنضج الكامل في افق كمال طبيعتها .

ومن اهم فتوحات الشرق في هذا الميدان ايمانه القوي الذي يقلقل الجبال ـ بحقيقة يمكن لك ان تسميها : ناموس التطور الانساني الكامل ويمكن لك ان تفرغها في عبارة لها صرامة المعادلات الجبرية فتقول « ان فيصل التفرقة في الافق الانساني بين الفوز والخذلان ، والنجاح والاخفاق ، والربح والخسارة ، والهداية والغواية ، والخير والشر ليس الا مراعاة مقتضيات النظام الكوني ومقتضيات نواميسه او الحياد عنها والزيغ ! »

وليس للعلوم وللفلسفات ، وللاديان من هدف سوى الكشف ـ او السعي في سبيل الكشف ـ عن اسرار ذلك النظام الكوني حتى يتسنى للبشر السير على اضواء نواميسه سواء مايخص منها العالم المادي او العالم الروحي !

قال ميخائيل نعيمة :

« ليس عليك ان تكون فيلسوفا لتدرك انك تعيش في عالم يهيمن عليه النظام في كيانه وجزئياته ، ولولا انه كذلك لما كان لاي عضو في جسدك العجيب ان يقوم بوظيفته يوما بعد يوم ، وعاما تلو عام ، ولا كانت الثقة من ان شمسا تغرب عنك في هذا المساء ستعود فتشرق عليك في الصباح التالي . او ان حبة قمح تودعها التراب في الخريف ستنبت سنبلة في الربيع ، او ان طفلا يولد لك اليوم سيغدو رجلا او امرأة بعد سنين فانت في كل ماتعمل وتفكر وتشتهي انما تطاوع نظام الكون فيك وفي الكائنات من حواليك . لذلك كان عليك ان تعرف هذا النظام لتطاوعه عن فهم وعن رضى فلا تشفيك المطاوعة بل تكون لك مصدر قوة وطمأنينة . ولذلك ترانا ـ معشر الناس ـ ندأب بغير انقطاع على تفهم ذلك النظام كيما نسير معه لا ضده .. » (ص ٤٩)

وهنا لابد لنا من الوقوف هنيهة ..

.. لقد انتهى المفكر اللبناني الى قمة من التفكير يكاد ينقطع فيها النفس لشدة مايهز نفسك من التأثر والانفعال من جراء ما انتهت اليه من الرفعة والسمو .

اتعرف ماسم هذه القمة من التفكير ؟ فقد يتفق احيانا لبعضهم ان يتسلق جبلا فينتهي الى قمته مع جهله اسم الجبل وشهرته فلا يعير الامر من الاهمية اكثر مما حصل له من لذة التسلق ومن لذة التغلب على الصعاب التي اعترضته . ثم يقال له ان الجبل انتهى الى قمته هو مثلا « الجبل الابيض » الشهير او هو « جبل الهملايا » فيخفق قلبه بجنس من الخفقان ماعرفه عندما كان يجهل اسم الجبل ..

كذلك فيما يخص هذه القمة من التفكير التي انتهى اليها ميخائيل نعيمه !

فانت لاتنتهي اليها برفقية حتى يومض بذهنك برق الادراك الدفيق للسر العظيم الذي سمى من اجله « الاسلام » اسلاما فتفجر في قلبك ـ تفجر الروعة الينبوع الذي يتدفق بلور مائه خلال مختلف الانظار الاسلامية ، والمقالات الاسلامية والتعاليم الاسلامية ، والاخلاق الاسلامية والرموز الاسلامية على الاطلاق !

لا شك ان المفكرين الاسلاميين ـ سواء أكانوا فلاسفة ، او متكلمين ، او أئمة مجتهدين او متصوفين ـ لم يعربوا عن هذا المعنى بهذه العبارة الصريحة ، ولا توخوا هذا الاسلوب الفلسفي المجرد للاعراب عنه مثلما

(١) وانه ليمكن لك ان تقول قول الجزم ان غاندي ، واقبال ، ونعيمه، وبو رقيبة ، بالرغم مما يوجد بينهم من الفوارق المدهشة في الملامح وفي اساليب العمل ليسوا الا نفحات ضمير الشرق الخالد .

فعل ميخائيل نعيمه ، ولكن اجزم بانك لن تفهم من « الاسلام » شيئا ما لم ينتصب هذا المعنى الدقيق في ذهنك ! ان عشرا من السنين قضيتها في النظر في السر الذي من اجله سمي « الاسلام » اسلاما وفي البحث عنه عن طريق التأمل في القرآن ، وفي الانتاج الفكري الاسلامي على اختلاف الوانه وصنوفه قد انتهت بي الى عين النتيجة التي انتهى اليها المفكر اللبناني في شأن النظام الكوني ـ وخاصة الخلقي او الروحي ـ وفي موقف الانسان منه في تصديقه به او في جحده له !

وليس من شك عندي في ان من رغب من المعاصرين في تحرير المذهب السني الاسلامي التحرير الذي تستسيغه العقول المعاصرة « اعني العقول التي تحزها اشواق العصر ومطامح العصر ، وغصص العصر ، لا العقول التي مازالت تعشش فيها وتفرخ اوهام الجاهلية وعصبية الجاهلية » ليس يمكن ان يأمل في التوفيق الا اذا شيد محاولته على ضوء هذا « المعنى الجامع » ففرع عنه مختلف الانظار ، والمقالات الاسلامية في شتى الميادين سواء مايخص منها الحياة الفردية او الجماعية .

ان كنت ممن يميزون بين روح الدين وجلبابه ، فتركت جانبا طقوسه وشعائره ومظاهره ، وحاولت ان تنفذ الى اخص خصائص ذلك الروح الذي هو روحه ، ادركت سريعا ان « الاسلام » هو قبل كل شي وبعد كل شيء ـ موقف من الوجود ومن شؤونه ، وموقف من الحياة ومن صروفها ! فالانسان عندما ينظر في نفسه وفي الوجود ، وفي العلاقة التي تربط بينه وبين الوجود وفي المواقف التي يمكن ان يعمل في سبيل اتخاذها وملازمتها في الحياة يجد ان تلك المواقف قد تكون موقف البصر بنواميس الوجود او الجهل بها ، وموقف الانس وسط شؤون الوجود او الوحشة ، وموقف اليسر في الاتصال بها او العسر وموقف القبول والرضى او الرفض والثورة ...

وللموقف الذي يريده الاسلام من الرجل ـ والرجولة من الرجل ! هو موقف البصر بنواميس الامور ، والانس بينها ، واليسر في الاتصال بها ، والحرص على مراعاتها ، والقبول لها ، والرضى عنها ، والاندفاع في سبيل تحقيق كل مايجب ان لاتأخذك فيه لومة لائم !

وانه ليمكن لنا ان نقدم الف دليل ودليلا على صحة كل قضية من هذه القضايا التي تخصص « الموقف الاسلامي » من الوجود وشؤونه ومن الحياة وصروفها ؛! وكلنا لسنا بصدد التدليل والتحليل ، وانما بصدد انقاذ الموقف الاسلامي مما حف به من ضروب الجهالات ومن صنوف اللبس مما طمس معالمه في الاذهان فجعلها طلاسم ومعميات والغازا « ولا استثني حتى اذهان من يتصدون للدفاع عنه ويزعمون انهم علماؤه ، وفقهاؤه ومفسروه وشيوخه » فغير ملامحه ايما تغيير وقلب خصائصه ايما قلب !

فالموقف الاسلامي من الوجود ومن الحياة في اخص خصائص حقيقته تأرجح متصل بين قطبين متقابلين ، وتوتر مستمر بينهما .

اما القطب الاول ... فهو الاحساس القوي العارم الذي يهز نفس المسلم ، هزا عنيفا حينما ينظر للكون ولنواميسه ، ولما يفض به غصا من اسرار لاتحصى وآيات لاتعد فيرى فيها رموز القدرة القديرة التي « لايعروها في خلق ماتخلق لالغوب ولا تعب » على حد تعبير ابي الحسن الاشعري فيجثو على الركبتين ـ لاخضوعا ولا ذلة ولا استسلاما بل تقديرا بل اعجابا ، بل رضى بل تسبيحا وتقديسا في غير ماطمس لنور بصيرته وفي غير ماشل لعزيمته !(1)

واما القطب الثاني .. فهو احساس « المسلم » بانه يحتل في هذا الوجود مكانة ممتازة تجعله « الالة المثلى » لتحقيق النظام الخلقي في اطار النظام المادي فيصير هو ادراك الوجود ، وضمير الوجود ، والسهم الفاتح في الوجود ... لاتأخذه في الله لومة لائم ..

لذلك كان « المسلم » يتأرجح دائما بين الشعور بانه لاشيء في الوجود ـ اذا قيس بالقدرة القديرة التي خلقت الاكوان ـ اما هو فلا يخلق شيئا حقيقة وان نسب اليه الخلق فمجازا . وبانه كل شيء في الوجود اذا اعتبر المسؤولية المدهشة الملقاة على عاتقه في مضمار تفجير ينابيع الحق ، والخير ، والجمال في أفق البشرية العابدة !

دك قطبا من هذين القطبين اللذين يتجاذبان نفس « المسلم » خلافا « الشعور الطافح بقدرة الخالق ـ الشعور العنيف بالمسؤولية الانسانية » تقض عى « الجدل » « المثمر » الخصب الذي يجري بينهما ، وتحطم « الشعور الاسلامي » في اخص خصائص توتره الحي الفاتح وتجعل منه اما استسلاما وعجزا ، وتوكلا ذليلا واما صلفا ، وكبرياء ، وغرورا لاحد لهما !...

واما ثمار « الموقف الاسلامي » في توتره الحي الفاتح فلا يمكن ان تكون الا الحدة في البصر والسعة في الافاق ، والرفعة في الاهداف واليقظة في الضمير ، والمضاء في العزيمة ، والحرية في الانعتاق ، والحرص الحريص على مراعاة نواميس الامور في الميدان الروحي للسير معها لا ضدها ، واما ثمرة كل هذه الثمار فالطمأنينة والسلام في القلب!.

فالاسلام ليس الاستسلام ، ولا يمكن ان يكون الاستسلام !.

فلا اللغة تقر هذا ، ولا العقل ، ولا النظر السليم ، ولا تلك المغامرة المدهشة التي كانت ثمرة تعاليمه حينما اضرمت القلوب العربية الساذجة بكهربائها العجيبة ، فانبرت ففاضت عن الجزيرة فيضا كان قدحا لشرار الحضارة الاسلامية مدة دهور !

وانما الاسلام نحت لملامح الحياة القوية السالمة ، البصيرة ، ورسم لاهداف الحياة القوية السالمة ، البصيرة ، واجلاء لحقيقة المستوى الرفيع الذي يمكن للانسان « عامة » ان ينتهي اليه عندما يخلص لحقيقته فتهزه « الاشواق الجوهرية » في نطاق البصر بنواميس الامور ! سل اهله ايام تفجر فجره يخبروك عن حقيقة امره ، وسل كتائب شهدائه في الحق يخبروك عن صنوف بطولته الروحية .!.

وليس من شك في ان اروع تلويح الى حقيقة « النزعة الاسلامية » في

(1) راجع : ابو الحسن الاشعري : كتاب الابانة « المقيدة »

دراسات ادبية

من منشورات دار الاداب

قضايا جديدة في ادبنا الحديث	للدكتور محمد مندور
في ازمة الثقافة المصرية	لرجاء النقاش
نزار قباني شاعرا وانسانا	لمحيي الدين صبحي

تدفق نبعها ، وفي انبجاس نورها ، وفي استقامة خطوطها وفي انطلاق سهمها الفاتح نحو بر الاهداف انما هو في « الشعار » الذي تخيره اهل السنة لانفسهم حينما اعلنوا انهم : « اهل الحق » !

والحق هو اولا الواقع ونواميسه ، وهو ثانيا المعرفة التي تنطبق على الواقع ونواميسه .

وهو ثالثا العدل اوما يسميه المعاصرون في صيغة الجمع : الحقوق !

وهو رابعا اسم من أسمائه الحسنى ورمز للقيم الخلقية والروحية !

فلفظ « الحق » من اعز الالفاظ في العربية بل هو اعزها على الاطلاق، فهو يدل على جنس « العبقرية العربية » وعلى صفائها : ناهيك انها استطاعت بوميض برق حدسها ان تقتنص « سر الوجود » فنفذت ـ نفاذ الميل ـ الى اعماقه حيث تتصل تلك الحقائق بعضها ببعض بأوثق مايكون الاتصال ، وحيث تنعقد « عقدة الوجود » فتضحي : « نور الحق » تلتبس اشعته هذا الالتباس المدهش !

وليسمح لنا الان ميخائيل نعيمه بان نتكلم بلغته ولفظه فنقول :

« امن العجيب بعد هذا ان كان « المسلم » على قدر شعوره بنفسه ، وعلى قدر شعوره بحقيقة الاسلام ـ موقفا ودينا ، اشتقاقا ومعنى ـ يطاوع نظام الكون فيه وفي الكائنات حواليه ، في كل مايعمل ، ويفكر، ويشتهي ، وان كان يحرص على معرفة هذا النظام لمطاوعته عن فهم ، وعن رضى حتى لاتشقيه المطاوعة ، وان كان يدأب بغير انقطاع على تفهم ذلك النظام كيما يسير معه لا ضده .. » مع علمه ـ دائما ـ قبل شروعه في البحث وبعد انتهائه منه ان « الله اعلم » ـ ومع شعوره الحاد بان هذا « الشعار » هو الحافز الذي يحفزه ـ اشد فاشد ـ الى التطلع الذي لا يعرف انقطاعا ولا فتورا ..

وان انت انتهيت الى هذا الحد افلا تدرك كثيرا من الاسرار التي يعزى اليها تدهور المسلمين « فشتان بين عالم الشارات وعالم الحقائق !» من جراء ما انتهوا اليه من « العجز عن الاسلام » في معناه الاصلي ـ كدت اقول ـ اللغوي ـ فخر جوابه من البصر بنواميس الامور الى الجهل بها ، ومن الايمان بالايمان الذي يقلقل الجبال الى ذلة الفوضى ، وتخنث الشقاق ، وانكسار التحسس ، والتعثر ، ومن نور التبصر ، والتدبر والاعتبار الى ظلمة الاهواء ،وكفر الدماغوجيا ، ومن مطاوعة النظام الكوني في صرامة نواميسه الى العناد الجاهلي الذي يأبى الا ان يدوس كل مبدأ وكل ناموس باسم العصبية ...

ثم الا تدرك كذلك ان « اللفظ الجامع » الذي يعلل كل مايشكوه العالم الحديث من القلق ، والاضطراب ، والتغرير ، والانقسام على النفس ، انما هو « كسوف الحق في افق البشرية » والحق يقضي علينا بان نقول ان هذا الكسوف كامل بين الامم الشرقية الاسلامية ، جزئي بين الامم الصناعية الحديثة ..

وانما نعني بذلك ان الحق من حيث هو واقع ومن حيث هو معرفة بنواميس الواقع لم تكن له قط في سالف الدهور صولة شبيهة ـ لا من قريب ولا من بعيد ـ بما اضحى له من الصولة المدهشة في العالم الحديث لدى الامم التي تعرف تقدما عجيبا في الميادين العلمية ، والفنية والصناعية « والشمس والقمر قد انتهى لهما ما انتهى من امر هذا التقدم ! »

اما الحق من حيث هو عدل ، ومن حيث هو ربوبية وقيم خلقية وروحية محركة للبشرية ورادعة لها فكسوفه لامرية فيه خاصة في ميادين السياسة الدولية حيث الصولة تتنازعها الاطماع ، والاهواء ، والجشع، والانانية ، والدهاء ، والتلاعب بأشواق البشر ، ووسائل العنف والاكراه .... لذلك امكن لميخائيل نعيمه ان يؤكد :

« انه لمن المؤلم حقا ان نرى ساسة الناس ، وقادتهم في شتى الميادين يتعامون عن الجانب الخلقي او الروحي من النظام الكوني فلا يقيمون له وزنا ، ولا يحسبون له حسابا فيمضون يزرعون الشقاق حيث يرجون ان يحصدوا الوفاق والحرب حيث لاينفكون يطبلون ويزمرون للسلم ويثابرون على تقسيم الارض التي هي ارث للناس اجمعين وعلى اقامة التخوم المصطنعة بين الشعوب .

فتخوم جغرافية وتخوم عرفية ، وتخوم دينية الى اخر ما هنالك من التخوم التي خلقها الجهل اجمالا ، وجهل النظام الكوني على الاخص ، انهم لايفتأون يعكرون الجو الذي يعيش فيه الناس ثم يعجبون لذلك الجو لايصفو من تلقائه ولا تصفو حياتهم وحياة الناس ، وانهم لايتورعون عن اراقة الدماء « حقنا للدماء » كما يدعون . وقد فاتهم ان الدماء لاتكفر عنها الا الدماء ، اما مؤتمراتهم السلمية واما معاهداتهم فشعوذات ومخرقات مادامت النيات من ورائها تعاكس النظام الخلقي ، بل تطعنه في الصميم ، ومن ضعف النيات فأي حاجة اذ ذاك للمعاهدات ؟ (ص ٥٥)

وللعجب العجاب في امر « اقطاب » تلك السياسة وفوارس مناوراتها البارعة ما يبذلونه من كنوز الذكاء ، ومن نفائس من المنطق ، ومن صنوف من الخيال ، ومن الوان الابتكار في حين انهم يعجزون ـ مطلق العجز ـ عن ادراك حقائق بديهية تكاد تكون لبساطتها تتاخم السذاجة ـ فهم لا ينتبهون الى ان « حريرهم الدباوماسي » يهدد الانسانية بالخنق لا اكثر ولا اقل . وهم لا ينتبهون الى ان العنف يولد العنف وان الاكراه يولد الاكراه . وهم لا ينتبهون الى ان من اراد السلم الحقيقية واراد العمل في سبيل توطيد اركانها فالطريق الوحيد الذي يضمن له النجاح انما هو طريق السعي المخلص في سبيل تجديد عهد الثقة ، وتجديد عهد التفاهم والمحبة بين البشر ، فالثقة وروح التفاهم ، والمحبة قد زلزلت زلزالها في النفوس فتهافتت الحقيقة الانسانية واضحى العالم يشكو ما يشكوه من الخوف ، والذعر ، والقلق ، وعدم الاستقرار ، وهم لا ينتبهون الى ان السياسة ليست قرع قوة مادية بقوة مادية اخرى ، ولا قرع جيش بجيش اخر : فهذا هو الحرب لا السياسة ـ وانما السياسة هي قرع قوة روحية بقوة روحية اخرى ، وقرع راي برأي اخر ، وقرع اشعاع باشعاع اخر ، .. وفي الحقيقة فانه لا يمكن

من منشورات دار الآداب

الحي اللاتيني(رواية) للدكتور سهيل ادريس

الخندق الغميق (رواية) للدكتور سهيل ادريس

دار الآداب ص.ب ٤١٢٣

لهم ان ينتبهوا لكل هذا فلو كان في امكانهم ان ينتبهوا لمثل هــذه الحقائق البسيطة . لما كانوا هم هم ، ولانقلبت فصيلتهم فصيلة روحية ولانقلبت سياستهم سياسة روحية عدتها الصدق لا الباطل ، والتفاني في سبيل اسعاد البشر لا التلاعب باشواقهم ، والامهم ، ودموعهم ، ووسائلها الاقناع لا الاكراه ، والتسامح لا العصبية ، والحب لا التهديد، والاشعاع لا الدعاية !

***

وبدهي اننا اذ نذكر خصائص هذه الفترة الحاسمة من فتــرات التاريخ البشري لسنا نعني ان الساعة ساعة التشاؤم القاتم ، وساعة الاستسلام ، وساعة الهول الذي يشل العقول والهمم ، وانما نعني بالضبط عكس كل ذلك ، نعني ان الساعة ساعة يقظة الضمائر الحيــة التي يجب عليها ان تاخذ على عاتقها عبء هموم الوجود ، وعــبء مسؤوليات الوجود !

فيقظة الضمائر في مثل هذه الظروف العصيبة يجب ان تكون عــلى قدر كسوف الحق وعلى قدر تقلص ظله . بل يجب ان يكون لهـــا فضل من القوة وفضل من التبصر ، وفضل من الاخلاص ، وفضل من الايمان لترجح كفة الحق في هذا العالم المتهافت .

وانه لمن واجب الضمائر الحية ـ سواء اكانت اسلامية ، او مسيحية، او غيرها ، ان تنشط فتسعى ـ جادة في سعيها ـ في سبيل اجلاء المعاني الخلقية والقيم الروحية حتى يصبح لها من جديد وزنها ـ وانه الوزن ! في ميزان الوجود فيعود اليه اروع الاعتدال ويضمن « لدولة الانسان » تجديد ثوبها الخلق في نطاق مغامرة انسانية جديدة تكون على قدر الامكانيات والفتوحات العصرية !

ولئن كان هنالك فخر يمكن لميخائيل نعيمه ان يطالب به فان كان كتابه « ابعد من موسكو ومن واشنطن » شهادة من تلك الضمائر الحية واحتجاجا من اصدق احتجاجها ـ وانما كان الامر كذلك لان ميخائيل نعيمه ينتمي لمعسكر هو المعسكر الوحيد الذي يطالب بالانتماء اليه وهو لا « يرغي ولا يزبد » ولا يقرع الطبول هــو معسكــر الانسان التواق الى فهم النظام السرمدي لينعتق به من ربقة الجهل ولكن ما يولده الجهل من قلق ، وخوف‌وبغض وتنافر بين الناس ! (ص ٧)

والمفكر اللبناني ذاهل ـ مطلق الذهول ـ وانه لمجده ! ـ عــن كل شيء ، الاعما وضعه نصب عينيه هما يستغرق همه : اعن مصير الانسان في هذا الوجود ! فهو لا يفكر الا فيما من شانه ان يحقق « الاهداف العليا » التي من اجلها شاءت المشيئة ان يكون الانسان في هذا الوجود ـ وهو لا يهتم ـ والاهتمام من الهم ! ـ الا بما يهدد حقيقة الانســـان بالهدم ، او بالمسخ ، او بالزيغ عن جاحم اخلاصها لاشواقها الاصلية !

وبالرغم من كل ذلك ـ بل من اجل كل ذلك ـ فان كتاب ميخائيـــل نعيمه لن يعدم اشخاصا يطالعونه بعين العصبية فيعتبرونه تهجما وقحا على الاتحاد السوفياتي او على الولايات المتحدة او على كليهما ويرون فيه تجريحا للاتحاد السوفياتي او لاولايات المتحدة او كليهما ويتخــذون لانفسهم من عنوان الكتاب وحده « ابعد من موسكو ومن واشنطن »ذريعة فحجـــــة فتبريرا .

ولكنهم يكونون واهمين !

فكتاب « ابعد من موسكو ومن واشنطن » على العكس اعظم تمجيــد للاتحاد السوفياتي وللولايات المتحدة كليهما .. ولهو تمجيــد الصــدق ولهو تمجيد الحق ، ولهو تجميد الحب ـ ولهو تمجيد الرجاء !

فليس هنالك سطر من سطور الكتاب ليس الشهادة الحية ، والاقرار ا ؤمن بأن الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة هما اليوم « الموجتـــان الفعاليتان » في الوجود بفضل ما يملكان من الامكانيات التي لاحصر لها في شتى الميادين العلمية ، والفنية ، والصناعية ، وبفضل ما يدخران من كنوز الطاقة الانسانية الحية !

وان هو فساءليهما احيانا فنقد وندد ، وغضب ، وسخر ، فقسوته على قدر حبه وعلى قدر رجائه ، وعلى قدر حرصه على تذكيرهما بمـــا اراد « التاريخ » ان يلقيه على عاتقيهما من مرهق الواجبات في سبيل العمل لرفع « دولة الانسان » اسمى فاسمى ! فالامــم التــي اختــارها التاريخ فالقى عى عاتقها اعباء « المصير الانساني » لا يمكن لها ان تضطلع بشريف مهام هذه الرسالة الا اذا امنت بان اندفاعاتها هــــي اندفاعات الانسان ، وان صبواتها هي صبوات الانسان من دون ذلــك لا يتسنى لها ان تتجاوز ضعة اهداف الانسانية ، ولا ان تتحرر مــــن سجن الانكماش على الذات . ومن دون هذا وذاك لا يمكن لها ان تحظى بشرف تسجيل اسمها في‌سجل « التاريخ الذهبي » الانساني !

فعلى الروس وعلى الاميركان ان يدركوا ان الاخلاص لموسكو والاخلاص لواشنطن لا يمكن ان يكون الا بمفازلة ما هو « ابعد » من موسكو او من واشنطـــــــن !

هي حقيقة خالدة مشتقة من حكمة الشرق الخالد .. فالمسلم ـ مثلا كان لا يعمل ولا يندفع ولا يتحرك لتحقيق ما شئت من الاغراض ـ جليلة كانت او حقيرة ـ الا في « الله » او « لوجهه » متجاوزا بذلك كل امــر حقير ،راميا من ورائه دائما الى التحرر من افاق الانانية الضيقة ، او العصبية القاتلة !

ولقد ابى ميخائيل نعيمه الا ان يذكر موسكو وواشنطن بمثل هــذه الحقائق الخالده

فهل هما يذكران ؟

ومهما يكن من امر فقد كان ميخائيل نعيمه بتذكيره مخلصا للشرق الخالد ! فقد اقام الدليل على ان « روح الشرق » قد ردت الى نفسها فدوى ضمير الشرق‌في اجواء العالم المعاصر باذكى الدوي !

ولقد كان مخلصا لاميركا ، ومخلصا لروسيا ، ومخلصا لما اكل باميركا، وبروسيا من « الخبز والملح » .. وان انت فكرت في جنس الاخلاص الذي هو اخلاص ميخائيل نعيمه افلا تدرك ان « قوة جديدة » تفجرت ينابيعها صافية ، معطرة ، في اجواء العالم المعاصر ، فهي هي الحريــة بان تكون اقوى دعامة للسلم في العالم ـ لانها هي الوحيدة التي تقوى على ان تخفف من غلواء المعسكرات الارضية مهما تكن : اعني « صولة الحق » في تالق نجمه !

تونــس **محجوب بن ميلاد**

طبعت على مطابع :

دار الغد للطباعة والنشر

تلفون ٢٢٩٢١